

بين الأدب والتاريخ

عبد القادر بن بوفلجة
طالب دكتوراه جامعة جيلالي ليابس

مقدمة :

حينما يكتب الأديب شيئاً مما تجود به قريحته من شعر أو نثر، فهو وإن كان يكتب لنفسه إلا أنه يقف للحظة معينة، ويؤرخ لفترة زمنية محددة. نقرأ القصائد المعلقة فهي تؤرخ لسيرة أصحابها في لحظاتها الدافئة، فدالات الكتابة تتعدى إلى التاريخ، وتتجلى لنا فيها أركان التاريخ الأربع: الزمن والمكان والشخصية والحدث.

وقد رأيت أن ابن خلدون أشار إلى هذه الأربع في مقدمته؛ حينما تكلم عن ما أسماه هو بالغلط الخفي في التاريخ الدّهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام أنه يكون في الأشخاص والأوقات والأمصار⁽¹⁾. ومقالاتي هذه أوردت فيها إجمالاً لفكرة معينة، ولم ألتجئ إلى تفصيل وإيراد الأمثلة، لأن الموضوع طويل ويحتاج إلى غزارة في الموضوع، ووفرة في إيراد الاستشهادات خصوصاً من كتب الأدب، لأن فكرة المقالة تتحدث عن خدمة الأدب للتاريخ، وهو مشروع كبير ضخم يحتاج إلى نخبة تبحث الموضوع، وتتأزر في جمع الكثير من الشواهد الأدبية، وتمحيص الحقائق التاريخية، وتخليص التاريخ من كثير الشوائب إذ يحتاج إلى الواقعية، وتهذيب الأدب حتى يكون منطقاً أعلى في تخليص الأمة من القوقعة والتخلف عن ركب تمثيل الأمة بأحسن وجه.

1- الزمن وهو أول محطة تاريخية يؤرخ لها الأديب، وهو القيد المعنوي الذي تحط فيه الأحداث من حوله. ويعتبر الزمن من الناحية الأدبية لحظة لا يمكن أن تتكرر وفيها يغتنم الأديب تلك اللحظات حتى يثبت ما في أشجانه، وهذه اللحظات تعتبر زمن ترجمة المشاعر وتاريخ للحظات وأوقات لفترة من العمر الإنساني. وإذا أردنا أن نؤرخ للحظات الشعراء والأدباء، نجد كلامهم يفيض شاعرية أكثر من غيرها، والناقد يدرس هذه اللحظات حتى يوطد العلاقة بين الحدث وصاحب الحدث.

وإذا صحّ أن يقال أن الكذب يغلب على أهل الأدب والشعر، فإنما هذا يكون على مستوى الأدب والانزياح في التعابير، لكن تبقى الواقعية وهي صدق وقوع الحدث في ضمن سياق الكلام، تارة يرد التصريح بها؛ يسرد الأديب الحدث تارة وتارة يستعير لها أو يكتفي عنها، فتتعرض لتأويلات لذلك يقع الاختلاف. فالشاعر العربي -مثلاً- الذي كتب القصائد المعلقة، إنما كتبها في لحظات أثارت شجونه عندما زار الطلل، لكنه بعد ذلك يستطرد في ذكر الحوادث في صورة الماضي الذي قام في ذهنه أثناء إلقاء القصيدة فهو يؤرخ للحظات عابرة عبر أشجان صادقة قد تكون عباراته كاذبة من

حيث التجوز في هذه العبارات لا غير. ومثله أي شاعر يمدح خليفة أو حاكما بعد معركة فيلجأ إلى وصف خيالي لكن يؤرخ للحادث في لحظته حتى كان من الخلفاء من كان وسيلته للحكم هو الشعر كما عند بني أمية حينما أثرت النعرات القبلية⁽²⁾.

وكثيرا ما يقع للمؤرخ حين يستشهد على واقعة ما بقصيدة قيلت بعدها، فيعضد القصيدة بصدق الحادثة. ولذلك وردت المقولة المشهورة: «الشعر ديوان العرب» ليس في العصر الجاهلي بل في العصور التي تلت هذه الفترة، حتى مع غيرهم كما هو الشأن في الأندلس، كما عبر ليفي بروفنسال وهو يستشهد لتأثير الحضارة العربية على الإسبانية، فيما يتعلق بمجموعة الأناشيد العامة الإسبانية المغربية الشهيرة باسم رومانسيرو Romancero وهي التي كانت في غرناطة لا يختلف مصدر الإلهام فيها عن مصادره في الأشعار الزجلية التي مازالت تصاغ حتى الآن في فاس أوفي الرباط، حيث احتفظ الذين يحترفون الغناء بجوهر الحكايات العربية الغرناطية سالما حتى بدون أن يدركوا أحيانا معاني كلماتها

2- المكان فهو الحيز الذي يقع فيه الحدث، وكثيرا ما يقتزن المكان بتاريخ الحدث. والأدب لا ينفك أن يستودع قصصه وأحزانه وأفراحه بذكر الأماكن، ولذلك يكثر الأدباء من ذكر الأماكن مواطن التجارب الشعورية، فهذا يذكر جبل كذا والآخر يذكر قرية أو مدينة كذا، وذاك يذكر موطن معركة كذا، وقد حفظت لنا كتب الأدب خاصة الشعر أسماء أماكن جرت فيها وقائع وأحداث، كما هو الشأن في الزمن. وتكمن قيمة المكان في الحدث الأدبي أنه يذكر بلفظه أكثر من الزمن، فيقتزن المكان بالحدث أو بشخصياته أكثر، فيصبح داعما وعاضدا تاريخيا.

ولو أن المؤرخ كان له اهتمام بالأدب لوجد كثيرا من ضائته في تعليق الأحداث والفصل في بعض الخلافات في الأحداث والوقائع ما تدّخره الخزّانة الأدبية من ذكر للأماكن،⁽⁴⁾ فكثيرا ما تتغير مسمياتها عبر الزمن فيقع الخلاف في كونها في زمن كذا أو في جهة كذا، أو يقع التشابه في الاسم الواحد لكنه يتعدّد في أماكن مختلفة، فيكون من المشترك اللفظي الذي يفصل فيه بذكر الفوارق اللفظية بين هذه المسميات، وهو شيء تتوق إليه النفس في إقامة مشروع موسوعي في ذكر الأماكن التي وقعت مسمياتها في بطون كتب اللغة والأدب - وإن كانت بعض كتب اللغة تقيم لنفسها فهراس للأمكنة والأعلام لكن بعمل كبار المحققين وهو عمل لا يكون إلا ممن رزقهم الله الصبر على هذه الأعمال -⁽⁵⁾ على غرار ما يستعمله الكتاب قديما وحديثا في الرجوع إلى مصدر مهم في ذلك ألا وهو معجم البلدان لياقوت الحموي، فقلما تجد كاتباً في التاريخ أو الأدب إلا كان له نسخة يرجع إليها لقلة الكتب النوعية في هذا النوع من التأليف.

3- الشخصية: ولا يمكن أن يقوم حدث ما إلا وله رجاله، ولذلك كثيرا ما يتم التنويه على الأحداث، بل ويعتمد عليها بترجمة الأعلام والشخصيات، وهذا النوع من التأليف غزا ردا من الزمن المكتبة العربية، لكنه أصبح الآن عزيزا - لاستغناء الناس عن الأساتذة والشيوخ - وأصبح التسابق إلى التأليف والانطواء على الذات سمة كتاب العصر، وما أحسن القول الذي يشيد بضرورة كتابة كل ما ورد عن أهل العلم: العقل عقلاّن: «مطبوع و مسموع ولا ينفع مسموع ما لم يكن ثم مطبوع»⁽⁶⁾ وكانت كتب التراجم والأعلام لا تقتصر على المؤرخين فقط، كالذهبي والسّخاوي وابن حجر فقط - وإن كان هؤلاء لهم مساهمة في الأدب - لكن كانت تراجم الأدباء في مرحلة متقدمة، من مثل طبقات الشعراء لأبي سلام

الجمحي (ت 231هـ)، والشعر الشعراء لابن قتيبة (ت 276هـ)، وفيما بعدهم معجم الأدباء لياقوت الحموي (ت 626هـ)، الذي لم يخص كتابه برجال الأدب فقط وإنما ضمّه عناصر من رجال الدين والفقه، وعلى كل تراجع الأدباء والشعراء ضمت نقولا تاريخية وأحداث مهمة لا يستغني عنها المؤرخ.

وثمة لون آخر من الأدب أشار إليه العلامة البشير الإبراهيمي في آثاره قائلا: «والتمثيل والخطابة عند الأمم الحية توأمان... وليس موقف الممثل بينهم دون موقف الخطيب ولا موقع الرواية من نفوسهم دون موقع الخطبة، فإنما الخطيب والممثل شيء واحد، الممثل خطيب إذا أحسن التصوير، والخطيب ممثل إذا عرف كيف يقصّ الخبر...»⁽⁷⁾ ونحن ندرج هذا في النوازل العصرية؛ ليس في المسرح فقط وإنما في الأفلام والمسلسلات التاريخية التي تحتاج إلى كثير من العمل الأدبي والتمحيص التاريخي، وهنا تقع المهمة على عاتق الأديب والمؤرخ اللذان يتحملان المسؤولية في المزج بين الأدب والتاريخ وتقديهما ليس إلى جمهور الأمة وإنما إلى العالم بأكمله، فليست أمتنا عقيمة في أدبها ولا في تاريخ بطولات رجالها.

4- الحدث وإذا أردنا الكلام عن الحدث، فهو لب الجمع بين الأدب والتاريخ، فالأحداث كثيرا ما تتناولها في التاريخ بموضوعية، لكننا في الأدب تتناولها بلون آخر من النفسية وأحيانا تكون من أصحاب الحدث بأنفسهم، فالشاعر الذي يصور أحداث المعركة مثلا يتناولها وهو يصف الأحوال النفسية، والجميل في وصف الأحداث أنه كان يصحبه وصف اجتماعي وظروف قيام تلك النزاعات بين القبائل مثلا في المجتمعات العربية في العصر الجاهلي، فأثارت الشعراء، وألهبت مشاعرهم، فينتقل التاريخ لحظة النفس إلى تاريخ اجتماعي، إلى توطيد لحظات تاريخية تتمثل في تاريخ عسكري لمعركة ووصف سياسي لوضع قائم في تلك الفترة.

والأثر الذي يتركه الحدث يعتبر أهم وسيلة في الحدث التاريخي، إذ قد تجتمع العوامل الثلاثة (الزمان والمكان والشخصية) في حدث فلا يدخل بوابة التاريخ،⁽⁸⁾ ولذلك ترى أحدا من العامة أو الخاصة يفعل من الغرائب ما يدخله في سجل الحمقى أو المغفلين أو فاقدي العقول وإذا سألته عن سبب فعله قال إنما يريد ليذكر به ويشتهر على ألسنة الناس. وقد سجل لنا الأدب لونا من التأليف هي من ألون الأدب حقيقة، لكنها دخلتها ألوان من التاريخ؛ تلك التأليف في الأدب مثل أخبار الحمقى والمغفلين للجاحظ (ت 255هـ)، أو من قصص جحا وأشعب، كلها من القصص والغرائب، ومنها أيضا كتب هي من مصادر الأدب عندنا مثل الكامل للمبرد (ت 285هـ)، حيث ملئت كتابه بمقالات الخوارج⁽⁹⁾ والبيان والتبيين للجاحظ وردت أقوال المعتزلة، أو مما يسجل في كتب الملل والنحل التي تحكي مذاهب المشائخ ونقولا عن أصحاب المقالات في الدين والفلسفة والكلام، أخذت لونا دينيا وسبكت في تأليف لغوية وعقدية، لكنها كانت تحمل في طياتها تاريخا لمرحلة من عمر العربية وواقعا اجتماعيا أو لونا سياسيا، وربما ثقافيا، مؤرخة لفترة زمنية معينة يلتجئ إليها المؤرخ كما لا يستغني عنها الأديب.

الإحالات والهوامش:

1 - ينظر المقدمة، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط 1- 1425هـ/2004م، ج 1، ص 116.

- 2 - ينظر الحياة الأدبية عصر بني أمية، محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب اللبناني ط2- 1987م. ص 54
- 3 - حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة ذوقان فرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بتصرف، د ت ط، ص 98.
- 4 - ينظر مشاهدات ابن الخطيب في المغرب والأندلس، هامش، تاريخ المغرب الكبير، عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص 527.
- 5 - ينظر تحقيق فخر الدين قباوة شرح المفضليات للخطيب التبريزي، طبعة 2 دار الفكر 1407هـ - 1987م/تحقيق عبد السلام هارون البيان والتبيين، مكتبة الخانجي/ تحقيق محمد الدالي الكامل للمبرد، دار الرسالة، ط3- 1418هـ - 1997م وغيرهم من كبار المحققين كمحمد محيي الدين عبد الحميد وأبو الفضل إبراهيم.
- 6 - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، شمس الدين الخاوي، تحقيق: فرانز روزنثال، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 1، 1407هـ/ 1986م، ص 33.
- 7 - الآثار، محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، د ت ط، ج 1، ص 67.
- 8 - ينظر البيان والتبيين، أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ت ط، ص 20.
- 9 - ينظر، الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، لجنة من المحققين بإشراف مؤسسة المعارف بيروت، د ت ط، ج 2 ص 217